

تاريخ ما أهمل تاريخ البادية العربية

روائع من الأدب الشعبي في بؤادي الأقطار العربية

محمد صالح برندي

للأدب الشعبي - منذ القديم - صلة وثيقة ببؤادينا وربوعنا العربية، لأنه يعبر عن عاداتها وتقاليدها البدوية الأصيلة ، وهو منبثق من صحرائها ورمالها وفيافيها وقفارها ، كما أن له طابعاً خاصاً من الروعة ، وجمال الأسلوب ، وقوة العاطفة ، وما ذلك الا لأنه يعبر عن الشعور الصادق للبيئة التي يعيش فيها .

وسأعرض قصة من ذلك الأدب ، رواها الرواة عن أحد أعلام البؤادي والقفار العربية من رواد ذلك الأدب الشعبي ، وهو الأمير عبدالله الفاضل أحد رؤساء عشيرة الحسنة ، وهي قبيلة عربية نزحت في الأزمنة الغابرة عن موطنها الأصلي في الجزيرة العربية ، الى بؤادي الأقطار العربية الأخرى ، وسكنت بادية تدمر في سورية ، وبعد ذلك هاجرت الى بادية حمص وحماة من المدن السورية .

يرجع تاريخ هذا الأمير الى نهاية القرن الثامن عشر ، أيام الحكم العثماني في البلاد العربية ، وكان سلاح البدو والسيف والرمح ، وكانوا يقاتلون على ظهور الابل والخيول العربية الأصيلة .

ان الأخبار المتواترة عن هذا الأمير، تدل على أنه كان مثالاً في الكرم والشجاعة العربية ، والاعتزاز بالنفس ، وشدة البأس ، وقوة الشكيمة ، فهو يفخر بقبيلة « الحسنة » ويقول في ذلك :

هلي رايات بالدنيا بيض لهم كرام ويمن الخايف بظلمهم
يتيه الفيهب المسما بظولهم هلي باشات على الشد وطناب

أي : إن أعلام قومه وراياتهم بيض بأفعالهم الحميدة ، لأنهم كرام ، والمستجير
الخائف على نفسه يجد الأمن والطمأنينة في ربوعهم ، كما أن الشخص القوي
الشديد لا يستهدي طريقه في خيام العشيرة المنتشرة في كل مكان بالبادية ، وهؤلاء
القوم هم السادة وغيرهم من البدو القاطنين في خيام الصحراء تبع لهم .

فكأنه يريد أن يعبر عما افتخر به الشاعر العربي القديم بقوله :

بيض صنائعنا خضر مرابعنا سود وقائعنا حمر مواضينا

ويقول هذا الأمير مفتخراً بقومه أيضاً :

هلي عز النزيل وعز من كال فكال الروزما ما هم حجر منكال
ان جاك الناس مي هظل من كول هلي نيسان طم العاليات

أي : ان قومي عز للضيف والجار ، وقوة وفخر لكل من قال قولاً ، وهم
عظام ثقال بوقارهم ورزانتهم كالحجر اذا رزته ، فليسوا خفاف الوزن (ويقصد
بذلك الهيبة والشخصية) كحجر المنقلة وهي لعبة بدوية مشهورة ، واذا كان غيرنا
يشبه الماء الذي جرى من النبع ، فأهليهم الفيض والقوة كالماء في شهر نيسان
الذي يطفو على الجبال والنواتي ويغمرها ويسيل به وتدفقه لأن في
هذا الشهر تداهم الشمس ثلوج الشتاء فتذيبها وتصبح مياهاً متدفقة غزيرة .

ويفخر هذا الأمير بعادات قومه الأخرى أيضاً ، عادات العرب القدامى ، وهي
الزواج من بنات الأسرة ، ليبقى النسل محافظاً على صفاته العربية المتوارثة
وبخاصة الصفات التي تكون شخصية فتى الصحراء العربي فيقول :

كبار الناس أهلنا من جدينا ولا نزل على الماهم جدينا
الناس النجم واحنا الجدينا جثير من النجم علا وغاب

أي : إن أهلنا من عظماء الناس ، وخوؤلتنا من العمومة ولا نحقد أو نحمل
ضغناً على الذين ليسوا مثلنا على هذه الشاكلة ، ولكن اذا كان الناس نجوماً
فنحن نجم الجدي الثابت الذي لا يزول بينما النجوم الأخرى تهوي وتسقط

وتغيب ، ويريد بذلك اظهار شأن قبيلته ومكانتها ومنزلتها الاجتماعية بين قبائل البدو الأخرى القاطنة في البادية .

وشاء القدر أن يصاب هذا الأمير بمصائب جسام عجمت عوده ، وخبرت مضاهه وتركت أكبر الأثر في نفسه ، حيث أصيب بمرض الجدري الويل .

* * *

في ربيع احدى السنين كان الأمير عبدالله الفاضل يتجول في تلك البادية الحبيبة الى نفسه التي يرى صعيدها أحب اليه من أي شيء آخر من أجواء المدن والقرى المجاورة .

كانت خيام العشيرة منتشرة في كل مكان وقد تناثرت في بطون الأودية والقفار وبدا الجو جميلاً طليقاً في الكثبان المترامية الأطراف وقد زركشت أودية الربيع المتلألئة تلك البطاح وخلعت عليها ثوباً قشيباً من البهاء والرؤاء ، وكان الهدوء والأمن قد استتباً في أرجاء تلك الربوع الصحراوية ، بفضل سهر الأمير ورجاله واهتمامه بتلك الناحية فقد كان للهيبة والقوة اللتين يتمتع بهما أكبر الأثر في انتشار السلام بين أنحاء القبيلة ، فلا غارات جاهلية ، ولا اعتداء من أحد على آخر ولا حوادث سطو أو نهب في عشيرة « الحسنه » ، وهذا ما جعل الأمير يفخر بهذا الوضع حتى يرى أنظار رجال العشيرة تشرئب اليه وتأخذ برأيه وترجع اليه في كل المشكلات والأمر فكان هو المرجع المدني والقبلي لكل شؤونهم ومنازعاتهم ، وعلى هذا فقد كان يركب ناقته السريعة القوية الملقبة بـ « البويضة » وقد وضع عليها الهودج المزركش والحلل الفاخرة والجميع يعرفونها من منظرها وهيئتها انها ناقة الأمير ، وفي الحالة التي لا يمتطيها صاحبها فانها كانت ترعى في أي مربع تذهب اليه دون أن يستطيع أحد أن يكفها أو يردّها ، كما أنها ترد أي منهل تشرب منه ابل العشيرة دون أن تلقى أية صعوبة أو عناء وما ذلك الا لأنها « البويضة ناقة الأمير » وهذا ما عبّر عنه بقوله :

عليج الرأي من فاضل يا ديرة وخشم الضد بالمرهف نديره
كفز ترعى البويضة بكل ديرة غرم عالشوارب واللقى

أي : تمتعي أيتها الديار العزيزة بالأمن والهدوء والسلام من عبدالله

الفاضل ، لأننا سنقوم أنوف الأعداء بالسيوف وهذه ناقتي البويضة ترعى في كل مكان ولا يستطيع أحد أن يجابهها بالصد أو المنع رغم شوارب الخصوم ولحاهم (وهو يرى في وضع البادية بزمته هدوءاً وأمناً يعود الفضل فيه الى هيبته وخشية الأعداء من صولته وقوته ويستدل على ذلك بأمر ناقتة التي أطلق لها الغدو والرواح والمرتع في أي مكان ينبت فيه الكأ .

ففي وجود ناقتة وتجولها نذير للأعداء والخصوم أو الذين يحاولون الاخلال بالسكينة في ربوع العشيرة بأن الأميرالقوي المرهوب الجانب وراءها يرى ويسمع ويدراً عن العشيرة كل ما يعكس فوها .

ولكن الوجوم قد بدا على وجوه أفراد القبيلة وخيم الحزن والكآبة على جنباتها في تلك السنة لأن مرض الجدري الوبيل قد ظهر وانتشرين الخيام القريبة والبعيدة ، وكانت الأخبار المتواترة تدل على وجود اصابات وضحايا كثيرة من فتك ذلك المرض ، ولم تكن الوسائل الطبية الحديثة من اللقاح والوقاية معروفة في ذلك الحين ، وكانت السلطات التركية التي تهيمن على البلاد العربية غير مهتمة بشؤون هؤلاء البدو الذين تراههم متنقلين في الصحراء ، لا يخضعون لسلطانها في معظم الأحيان ، فهي لهذا لم توجه عناية كبرى لمكافحة ذلك الداء والقضاء عليه سواء أكان في المدن أم في الصحراء ، فاستفحل الداء الخطر الذي قضى على الكثيرين ، وأعمى العديدين وشوه وجوه معظم الذين أصيبوا به وقد رلهم أن ينجوا من الموت ، وكان ينتشر بسرعة خاطفة بين أفراد العشيرة فلا توجد خيمة الا وقد أصيب بعض أشخاصها بعدواه ، منذراً بالخطورة الكبيرة والضحايا الجمة والخسارة الفادحة .

هب رجال العشيرة وقادتها مذعورين من استفحال هذا الداء في ربوعهم وباتوا يتنادون الى عقد الاجتماعات العديدة للتشاور وتبادل الرأي في مكافحته وخاصة حين رأوا أن الاصابات قد ازدادت بين الرجال والنساء والأطفال وليس بنافعهم الانتقال من بقعة الى أخرى في هذه الصحراء المترامية كما هي عادتهم في التنقل سعيًا وراء الكأ والماء فالداء المخيف يلاحقهم وكان ذلك العام الذي داهمهم به مرض الجدري نادرًا الأمطار وقد تراءى العشب قليلا من جراء ذلك في مرامي

الأبصار وبدأت المياه تنضب من الآبار ، فكان لا بد لهم من البحث عن وضع ينقذهم من هذه الخطوب الكبيرة النازلة بساحتهم وقد ترامى الى مسامعهم أن سلطات الحكومة بدأت تهتم بمكافحة هذا الداء بالوسائل المعروفة التي كانت بين يديها في المدن ولكن تلك المكافحة لم تصل الى كثران الصحراء وخيام البدو ، وهذا ما دعا رجال العشيرة وقادتها للتفكير بالنزوح الى مشارف المدن القريبة من بواديهم وهي مدينتا حمص وحماة حيث المسافة قريبة بينهما ، ليكونوا على مقربة من السلطات واهتمامها وامتداد أيديها اليهم ، لاسعافهم بالدواء أو وسائل المكافحة الأخرى وليتسنى لهم أيضاً الحصول على الماء •

وفي تلك الأيام العصيبة التي مرت بهم أصيب الأمير عبدالله بداء الجدري وسرت عدواه الى خيمته فأصيبت معه زوجته ليلي أيضاً ومات ابنه به ، وهذا ما دعا الى التخلف عن اجتماعات رجال العشيرة المتكررة التي يعقدونها للنظر في وضعهم ازاء هذا الداء الخبيث •

وقد عرف البدو منذ القديم أن المرض الفتاك ينتقل بعدوى الملامسة الى الباقين لذلك درجوا على عادة مبدئية لمكافحة سريانه الى الآخرين وهي عزل المريض في خيمته وابقاؤه بعيداً عن خيام العشيرة الأخرى ، وكان لا بد لهم من اتخاذ قرار حاسم ، وقد عزّ عليهم أن يقعد المرض زعيمهم ورئيسهم ويدعوه للتخلف عن قيادة اجتماعاتهم وعهدهم به أنه كان السباق لكل أمر جلل أو شأن كبير يحل بالعشيرة أو مصاب يداهمها حيث كان رأيه هو النافذ ، وكلمته هي المسموعة •

والواقع أن خطورة الوضع التي ازدادت سوءاً بمرض الأمير وزوجته دعته الى عقد اجتماع نهائي أخير حضره الأمير فاضل والد عبد الله وهو شيخ طاعن بالسن قد تجاوز العقد السابع من العمر وأوهنت الأيام قواه ، وأحنت الشيخوخة ظهره ، فدلقت الى القوم وهويدب ديباً يتوكأ على عصاه بيد عارية الأشاجع ، وقد ارتسمت امارات الاهتمام ودلائل الأسى على وجهه وقسماته المكدودة •

وأخيراً أقر المجتمعون الرأي الذي أزمع عليه معظم الرجال وفكروا فيه منذ

حين وهو الرحيل عن هذه الديار من البادية الى جهات أخرى ، وترك المصابين بالجدري في أمكنتهم بالصحراء ليقضي الله بهم أمراً كان مفعولاً ودون استثناء أحد بما في ذلك الأمير عبد الله نفسه وقد صعب عليهم أن يتركوا قائدهم وفارسهم المغوار ولكن لا بد من ذلك الوضع الذي ألجأتهم اليه الظروف القوية القاهرة الخطيرة وقد وافق والد الأمير على رأيهم ولم يستطع أن يعترض أو يبدي حلاً ما فالأمر جلل والمصيبة عظيمة ومصلحة الجميع خير من المصلحة الخاصة ، الا أن هناك أصوات بعض الرجال الذين يقدرون الأمير وشجاعته وفضله على العشيرة قد استنكروا تركه في البادية فريسة للمرض وضحية للداء ، ولكن لم يكن بوسعهم اجراء شيء تجاه عادات البدو الموروثة .

في عشية احدى الليالي كانت الرياح الخفيفة الندية تهب من حين الى آخر فتنتعش النفوس وتفرح القلوب ، وقد سطع القمر متلألئاً بهياً في سماء الصحراء الشاسعة ، وتلألأت النجوم والكواكب منيرة ذلك الأفق الواسع بنورها الفضي ، وقد انعكس نشاط الطبيعة على وجوه الرجال وسرت عدواه الى أجسامهم وعزائمهم فكانوا يشاهدون في حركة دائمة لا تفتقر ، وقد أخذوا أهبتهم للرحيل وبدأوا في تلك الليلة القمرية يحزمون أمعتهم للتأهب والرحيل ، فكان رب الأسرة منهم يقوم بعمل ما يجب عليه يساعده في ذلك أولاده وزوجته وذووه ، وقام الرجال الأشداء في العشيرة بنقل المصابين بداء الجدري ووضعهم في خيام خاصة نصبوها بعيداً عن مضارب القبيلة ووضعوا الى جانبهم أواني فيها الطعام والماء ، أما الأمير عبدالله الفاضل فقد وضعوه هو وزوجته ليلي في خيمة كبيرة ، ونحروا له بكرة من الابل طعاماً لهما ، ووضعوا الماء وما يلزم من الأغذية والحشايا وتركوا له خادماً قوي الجسم مفتول الساعدين ، نشيطاً ليقوم بخدمتهما ، كما تركوا أحد كلاب الأمير القوية ويدعى (شير) ليقوم بحراستهما .

كان الأمير رهين المرض في الخيمة التي وضع بها ، وقد استولت عليه حمى ذلك الداء فهدت قواه ، وانحلت جسمه ، وجعلته طريحاً تنتابه الغيبوبة التي لا يصحو منها الا في بعض الأحيان فيستعيد بعض وعيه ومداركة ثم لا تلبث وطأة الداء الخبيث أن تشتد عليه فتجعله يعود الى غيبوبته الأولى ، وهكذا كان . . .

وربما كان الأمير قد علم لماذا بقرار القوم بالرحيل العاجل ولكن ماذا كان بوسعهم أن يفعل ؟ فالمرض الجاثم على صدره أشد وطأة عليه وأعظم بلاء لأن الحمى تشتد عليه بين آونة وأخرى والموت أقرب إليه من حبل الوريد .

وما أعظم هذه اللحظة ، وما أشدها وقماً في نفس ذلك الشهم الشجاع ، الذي لم يخشَ المصائب الكبيرة الجسام التي لقيها في حياته ولكن الحوادث أقوى من الرجال .

مضى رجال القوم في تأهبهم واستعدادهم للرحيل ولم يستطيعوا أن يركنوا الى النوم طويلاً في تلك الليلة فقد نعموا باغفاءة قصيرة ، ما لبثوا أن استفاقوا بعدها في وهن الليل وقد علت ضوضاء الرجال وأصوات الحيوانات وعواء الكلاب فأيقظت النائم وحفزت المتراخي والساجي للوثوب والعمل والتهيؤ فقد أزعج موعد الرحيل .

بدأت قوافل العشيرة برجالها ونسائها وطمعائها ومواشيها قبل حلول الفجر بالارتحال وسارت تقطع الفيافي والرمال، وتسير بما في ذلك والد الأمير وأولاده وزوجته الثانية (ثريا) وقد ودع القوم فارسهم ورؤسهم المغوار بالقاء النظرة الأخيرة عليه بمرارة ولوعة ، وارتحلوا وقلوبهم تنفطر حزناً وأسىً على ما حل به وساروا وهم يلتفتون الى خيمته قبل فراقهم له وقطعت ظمائنهم وهوادجهم وركابهم مسافة يسيرة ، عند ذلك نبه الكلب (شير) حارس الأمير نباحاً محزناً باكياً من وقع الفراق وكان عواؤه قوياً متواصلاً مما جعل الأمير يستيقظ من غيبوبة المرض فسأل خادمه عن الأمر فأنبأه هذا أن القوم قد ارتحلوا لا يلوون على شيء لأنهم قد نفذوا ما عزموا القيام به ، وان الكلب يبكي الألفة والفرقة ، فلم يهدأ عواؤه طوال ذلك اليوم ، فبرى الأمير الوضع وهو طريح الفراش فيقول لكلبه :

هلك شالوا على مكحول يا شير وخلوا لك عظام الحيل يا شير
يا لو تبكي بكل الدمع يا شير هلك شالوا على حمص وحماة

أي : أن قومك أيها الكلب (شير) قد حملوا أمتعتهم على الابل القوية ورحلوا وتركوا لك لحوم النوق وعظامها ولو سكبت على فراقهم دموعاً غزيرة ، وبكيتهم

ما شاء لك البكاء فلن تستعيدهم لأنهم قصدوا الى مدينتي حمص وحماة ،
وتركوك وحيداً في هذه البادية فخفف من عوائك وأقلل من بكائك •

رجع الأمير الى نفسه بعد ذلك وتأمل الأرزاء المحدقة به والمصائب
النازلة عليه من كل جانب فوجد أنه يقبع في عزلة كئيبة ووحشة شديدة بعد أن
ارتحل عنه أهله وذووه ، وتركه القوم وهجرته العشيرة ، وكان المرض قد
أضنى جسمه ، وأخمد قواه ، وغير ملامح وجهه ، وزعزع كيانه ، في هذه الأرض
القفر التي لا يسمع بها إلا عواء بعض الحيوانات الشاردة، هنا وهناك، يشاركها
كلبه شير •

كانت الرياح السافية تهب حارة كثيفة مشبعة بهوائها الساخن من حين
آخر في آفاق الصحراء الواسعة فتلطم أعمدة الخيمة وتحركها ، تنهد الأمير
بحسرة وحرقة ومرارة وأسى وسرح طرفه في الأفق البعيد فرأى أنه قد أصبح
كعود في عباب هذه الصحراء المتلاطم ، برماله ورياحه الهوج العاتية تلعب به
كما تشاء ، وقد غمر الحزن العميق قلبه وأفعم فؤاده ، وحال بينه وبين أهله
الذين تركوه في فجوج الصحراء وبين نجادها ووديانها حيث قطعتها قوافل
العشيرة بالنوق والجمال القوية السريعة وهذا ما عبر عنه بقوله :

هلي بالدار خلوني وشالوا وخلوني كجعود ببطن شالوا
على حذب الظهور اليوم شالوا وحایل دونهم كور وسراب

يقول : ان أهلي قد ارتحلوا وحملوا أمتعتهم وتركوني وحيداً كالعود في الشلال
يتقاذفه موجه ويحمله من مكان الى آخر ، وقد سافر هؤلاء القوم على متون النوق القوية،
وحال بيني وبينهم أنجاد الأرض وأغوارها وفيافها •

بزغ الفجر صبيحة أحد الأيام طلقاً رخياً، فنشر أشعته الفضية البهيجة في أفق تلك
الصحراء الشاسعة ، وألقى ظلالة البهية على فيافها وحصبائها ورمالها الكبيرة ، وما لبثت
الغزالة في أفق السماء أن تبدت من خدرها ، فتجلى رواؤها وسناؤها المشرق ، كان جمال
الصحراء يبدو في أبهى حلله ، وأمتع مباهجه، فقد خلعت أشعة الشمس على كثران الرمال
وأنجادها ، ووهادها حلة قشبية من الجمال المنعش الممتع •

ساد السكون والهدوء تلك الفيافي والبقاع السحيقة فلا تسمع الا عواء الكلاب وبعض
الأصوات العابرة هنا وهناك من الناس الذين استيقظوا على ضوء الفجر وانطلقت تمد

العنان لنشاطها بظلال أشعة الشمس التي امتدت إليها رويداً رويداً فأكسبتها انطلاقاً من خمولها ، وأمدتها بفيض من الحيوية وانشرح الصدر • بعيداً عن الأمير الذي كان غارقاً في عزلته ، قابلاً في خيمته ، سادراً في غيبوبته •

مضى يومان على ارتحال القوم وكانت خيمة الأمير المريض جاثمة في أحضان الرمال وقد خيم عليها الصمت والحزن العميق ، فالأمير سادر في مرضه سابح في خضم من الأسى والحزن ، وإلى جانبه زوجته ليلي وقد خف عواء الكلب شير بعد أن بكى على فراق القوم، جلس الخادم القوي تجاه باب الخيمة يراقب بنظره الثاقب الأفق البعيد الممتد إلى ما لا نهاية ، وقد ظهر في الجو بعض الطيور الجارحة وهي ترفرف وتصفق بأجنحتها غادية رائحة من مكان إلى آخر ، في هذه الأثناء استفاق الأمير من غيبوبة المرض فسارع الخادم إليه وأعلمه بنضي يومين على ارتحال القوم عنه، فتنهّد حسرة وأسفاً وأرسل الدموع غزيرة حارة وتنهّد بحرقة وأسى قائلاً :

هلي ما راعهم صايح ولوماي ولا ينفع بهم عذلي ولوماي
عسنهم عكب هالفوزة ولوماي ترووا وارووا الزود العفا

أي : ان قومي قد نفذوا ما يريدون وأصروا على ما قرروه ، ولم يستجيبوا لصوت الرادع أو اللائم ، كما لم ينفعهم عذلي ولومي ، ثم يرجع الأمير إلى الأمل بعد ذلك ويرجو أن يكون قومه وأهله بعد هذه المسافة التي قطعوها مدة يومين في الصحراء قد وجدوا المياه الغزيرة التي كانوا يقصدونها ولعلهم قد ارتووا منها وسقوا مواشيهم بما فيها النوق الاحتياطية التي توضع مع المواشي الأخرى للملمات والأعمال الحادثة •

وكان الأمير بشعره الآنف الذكر يعتب على قومه لأنهم جحدوا فضله وأنكروا أثره البارز في العشيرة بتركهم إياه وحيداً في الصحراء فريسة للمرض والهموم ، وربما كان يرجو منهم كما يتضح من قوله ، حمله معهم أو البقاء بجانبه - ولكن نفسه الأبية لم تجعله يذكر ذلك بلغة التوسل والاستعطاف بل نوه بلهجة النصيح واللوم والعذل • على أن الأمير قد وجد العذر بصورة ضمنية لقومه ورجا لهم أن يجدوا الماء الذي كان ضالتهم المنشودة •

وهكذا فإنه لم يحقد عليهم لأنه عميد العشيرة وفارسها الشهير فلا غرابة إذا تمنى الخير لهم فمصلحة العشيرة فوق كل مصلحة ولهذا أقر رأي الأغلبية من القوم ولسان حاله يردد ما قاله الشاعر العربي القديم :

وما أنا الا من غزية ان غويت وان ترشد غزية أرشد

وهكذا كان ٠٠٠ ما برح الأمير رهين المرض ، حبيس الخيمة في تلك الفيافي المنقطعة ، وزاد في ألمه ارتحال قومه وأهله وأولاده عنه ، فلا أنيس يؤانسه في محنته سوى هذا الخادم الذي يقوم على خدمته ورعاية شؤونه ، وزاد في ألمه وجود زوجته ليلي بجواره مريضة ساجية ، وهكذا فقد استسلم للصبر وارتقب قضاء الله وقدره •

وفي احدى الليالي اشتد المرض بزوجته وأحاط بها الردى ، وأناخ بجسمها الموت فسكنت نأمتها ، واستراحت من آلام الداء الوبيل ، الذي لم يرحم صباها الغض ، وشهد الخادم احتضارها وموتها فأيقظ سيده من غيبوبته وأعلمه واقع القدر .

تحامل الأمير على نفسه ونهض وأطل برأسه على جثمان الزوجة التي ودعت الحياة ، فرأى وجهها الهامد قد غُطي بالنقاب وذهبت المنون بنضارته ولم تبق الا عيناها الساجيتان وكان منظراً مؤلماً أحزن الأمير ، وأدمى فؤاده ، فبكى ما شاء له البكاء ، ونزلت عبراته الغزيرة ساخنة على خديه الكامدين من فؤاد كليم ، وجسم سقيم مغمم بالأسى والأحزان والأوجاع ، وما لبث أن أنشد :

يا ليلى مخفية الوجنة بس العين ومالك شبه من الجازي بس العين
يا فاضل بطل الونة بس عين عليهم طول ما أنت بالحياة

يقول : يا ليلى الراحلة التي أخفى النقاب وجنتيها وأذبل الموت نضارة وجهها فلم يظهر من الوجه الا العينان اللتان تشبهان عيني الغزال ، ثم يرجع الى نفسه ويناجيها قائلاً يا فاضل اترك الآتين والتوجع ، والتوله فانه لن يفيد والزم الألم والصبر الصامت على من تحب ما دمت على قيد الحياة .

فكانه يريد أن يعبر عما جاش في صدر العربي القديم عندما رثى حبيبه بقوله :

ولما دعوت الصبر بعدك والأسى أجاب الأسى طوعاً ولم يجب الصبر

لقد قام الخادم بدفن الزوجة في قبر حفره لها بعيداً عن الخيمة ، ولاحظ أن سيده قد أمعن في البكاء في ذلك اليوم وما لبثت دموعه أن انسكبت بلوعة وحرقة ، في كل منظر رآه به في مصيبتة التي رزىء بها ، وما أعظم وقع المصائب على قلب هذا الرجل الشهم ، بل ما أكثر تتابعها فقد بدأت بالمرض وترك الأهل له وارتحالهم عنه ، وها هي الآن سهام المنايا قد أفقدته زوجه ، والشيء البارز الذي لم يبرح يفكر فيه الخادم ويعجب منه هو بكاء الأمير وقد عهده منذ أن نشأ بخدمته من الصغر جلدأ ، صبوراً لا يعرف الخوف والوجل الى نفسه سبيلاً ولم يره باكياً حتى في أشد المواقف هولا خلال حياته الطويلة الملاى بالمعارك والحروب ولكم شهد مواقع أصيب أو جرح بها ، أو فجعه الزمان بأصدقائه وأقاربه وأولاده . . . فما باله اليوم يبكي بكاء الأطفال ؟ ويعول عويل النساء ؟ لقد اعتقد الخادم بعد أن تأمل طويلاً في وضع الأمير أنه يبكي نفسه بتلك الدموع ، بل يرثى حياته التي أوشكت على المغيب بعد أن رأى جسمه الهزيل قد أصبح كالهيكل العظمي ، ورأى عينيه قد ذبلتا وخمدت حديثهما وخبارواؤهما المتوقد ، وقد اضمحلت تلك الحيوية التي ملؤها الشجاعة والاباء والاعتداد بالنفس ، فأسفاً للخطوب والحوادث المؤلمة التي تردى النفوس وتدمي القلوب الكبيرة .

وأخيراً حصلت لدى الخادم القناعة أن الأمير يقترب من الموت وأنه على شفا جرف هار منه ، وألا أمل يرجى لشفائه وبرئه .

كان وجهاء العشيرة وخاصة والد الأمير وذووه قد زودوا الخادم قبل رحيلهم بتعليماتهم وأوامرهم التي تقضي بخدمة الأمير وزوجته والسهرة عليهما حتى ينتهي صراعهما مع المرض ، فان شفي أحدهما أو كلاهما فليات به الى مضارب العشيرة التي حددوا مكانها له ، وان ماتا فليدفنهما وليحضر بنفسه ويلحق بقومه ، فبعدما شهد الخادم وفاة زوج الأمير ورأى حالته قد ساءت ورأى أنه وارد قبره اليوم أو غداً ولا حق بزوجه ، لم يشأ الانتظار وعزّ عليه أن يرى سيده يموت ويقوم بدفنه ، وربما خشي أن يدهمه المرض وتنتقل اليه العدوي بعد أن ضعفت عزائمه ووهنت قواه من رهبة الموت وهول الموقف فاستبد به ضعف العزيمة وخور الهمة والثالث عليه الأمر ولم يدر ماذا يفعل فهام على وجهه وهو يهذي كأنما به مس من الجنون ، وكان يردد شعر الأمير في رثاء زوجته وقد حفظه لأنه تأثر به ونزل بقلبه ولا سيما وقد رآه باكياً حين انشاده .

وأخيراً ساقته قدماء الى مشارف خيام العشيرة وعندما رأى نفسه على مقربة منها انتبه قليلاً من غفلته ومن هواجسه التي كان سابحاً بها وفكر فيما يقول للقوم الذين يرتقبون أنباء الأمير بلفهة واشتياق ، وعندما وصل اليهم أعلمهم ما نوى اخبارهم به وهو موت الاثنين وقيامه بدفنهما اعتقاداً منه أن ذلك ما يتوقعه القوم ، ولعلمه أن النجاة قليلة ونادرة من برائن ذلك الداء الذي افترس الكثيرين ، وهيهات أن ينجو منه أحد الا من مد الله له عمره وهم قلة .

لهذا لم يساور القوم شك في ادعاء الخادم فحزنوا على موت الأمير ، وعلموا أنهم قد فقدوا فارساً شهماً ستذكره العشيرة دوماً ، وأنى لغيره أن يملأ فراغه ؟ وأقاموا المآتم والتعازي في كل منزل وخيمة لأنهم يحبونه ويقدرّون صفاته الفريدة واخلاصه لهم وفضله عليهم .

بقي الأمير في خيمته الكئيبة الحزينة التي خيم عليها المرض والوحدة والألم المرير ، كان بين حدي مقص الفناء يدنو منه الموت رويداً رويداً ويقترب منه شيخ المنون بوجهه الكالح المر ، ويدهمه المرض العضال بوطاته الشديدة فعندما يستسلم الى اغفاءة أو غيبوبة من النوم يظنها النومة الأخيرة التي لا صحوة بعدها ، وهكذا حالته بين يأس ورجاء ، وشدة ، وأمل ، لا يعرف ماذا يخبئ له الغد المجهول في ثنايا طياته ، وغياهب مجاهله ، لقد انثالت على قلبه المحن والأزراء وأحاطت به وتعاورت جسمه سهام الردى ونصال المرض فلم تبق منه الا هيكل عظمياً يلفه أديم هزيل وجسم نحيل يتردد به نفس متقطع ، وأنين متحرج ، على أن الرجال ذوي النفوس الكبيرة والعزائم العظيمة عندما تنزل بساحتهم المصائب وتبلوهم النوائب يتذرعون بالصبر ويلجئون الى احتمال المكاره والآلام مهما كانت جليلة ، فهناك يبدو معدنهم الأصيل الذي تأتيه النار فتصهره من شوائبه وأدرانته وتظهره بطبيعته وتجلو رونقه ولمعانه ، وهذا ما جرى لهذا المسكين فقد استسلم لقضاء الله وصبر وتآلم بمرارة وحزن وكان يعبر عن مآسي قلبه بأشعاره الشعبية التي تخرج من قلبه الكليم وفؤاده الجريح ونفسه الملتاعة فحسبه من هذه المصائب ما نزل بساحته وكفاه من البلاء ما حل به وكان لسان حاله يقول :

رأيت الدهر يجرح ثم يأسو يؤسي أو يعوض أو ينسي
أبت نفسي الهلاع لرزء شيء كفى رزءاً بنفسي رزء نفسي

شاءت الأقدار في صبيحة يوم من الأيام أن تمر قافلة من العرب الرحل وقيل أنها من (الصليب) فشاهدت تلك الخيمة التي تذروها الرياح وعندما خيم أفرادها بجوارها ودنوا منها وشاهدوا الأمير طريح الفراش يصارع الموت ويقاوم الألم وكأنه رنا اليهم ببصره من خلال الصحوات القليلة التي كان يستفيق منها بعد غيبوبة المرض المستمرة التي كانت تدهمه من آن لآخر ، ولعله أراد أن يعبر عن وضعه ويعرف زواره بمحنته وبمصيبته بقوله :

هلي شالوا وخلوني طريحي الفرش يا جرح دلالي طريحي
نحل جسمي وبكى طاريحي تلج الروح بين ضلعي والحشا

يقول : ان أهله قد ارتحلوا وتركوه طريح الفراش وجراحه لما تندمل حيث نحل جسمه وأصبحت حالته كما هي فروحه متردة بين ضلوعه وأحشائه .

ولكن أفراد القافلة الذين لا يجهلون وضع ذلك المرض الخبيث أرددوا فوراً أنه مصاب به فعكفت عجوز منهم لها المام بالطب العربي وعالجته بما تعرفه من خصائص العقاقير والحشائش التي تنبت في البادية ، وقد قيس الله الشفاء للأمير فتحسن وضعه الصحي تدريجياً وزال عنه خطر الموت .

ترك الأمير الخيمة وبقي مدة يستجم فيها بعد أن ابتسم له الزمان قليلا وقد غير المرض وجهه ، وبدت ندوب الداء الوبيل تملؤه من كل جانب وكان للمدة الطويلة التي قضاها أكبر الأثر في جسمه ونفسه ، فقد دب الهزال في عوده الناحل ، وتسرب الضعف الى كيانه وجسده فأصبح عليلا سقيماً ، وتشربت نفسه شعار التألم والقطيعة من أهله وذويه وأفراد عشيرته الذين أنكروا فضله وتركوه فريسة للداء ونبدو في هذه الصحراء وهو الذي افتخر بهم كثيراً ورفعهم بشعره الى ذرا الفخر والحماة وأضفى عليهم من شخصيته ثوب العز والمفخرة ، فقد أكثر في أبياته وشعره من التباهي بهم وبدئت معظم أبياته بكلمة (هلي) أو أهلي الذين اعتمد عليهم كثيراً وجعلهم جزءاً من شخصيته وكيانه ، وهذا الفخر ولو أنه طبيعة أصيلة في نفس العربي الأصيل الا أنه لم ينسه أن ينكر عليهم الموقف الذي وقفوه تجاهه وأن يعمل على تركهم وينوي أن يولي وجهه قوماً آخرين وألا يعود اليهم .

ولهذا نجده في أبياته ينحي عليهم باللائمة والتشهير ويصب جام غضبه عليهم فهو يرى أن قومه ولو أنهم تابعوا عاداتهم القبلية القاضية بعزل الرجل المصاب الخطير الذي يخشى أن يسري دأؤه الى الآخرين في الصحراء وهم عرب متنقلون من واد الى آخر ومن بادية الى أخرى الا أنه ما كان أجدرهم ألا يطبقوا هذه القاعدة عليه وهو فذ في رجولته وشاعريته وقيادته للعشيرة ، فهو يقول :

هلي شالوا بليل وما سقوني وخلوني شبيه الماسكوني
طلبت المي منهم ما سقوني يويلي من هلي بان الجفا

أي : ان أهلي ارتحلوا في الليل ولم يأخذوني معهم وتركوني في هذه الصحراء ،
شبيهاً بالأسير حتى انهم لم يعرجوا عليّ حين الرحيل ويسقوني الماء . ويقول ان هذه
الجفوة والقطيعة كلها قد بدت منهم .

ويتمنى لو أن عشيرته قد قررت أخذه وعدم تركه في هذه الصحراء ليشاركهم أتراحهم
وأفراحهم ويبقى معهم حتى ولو أرداه المرض أو أودى بحياته فخير له وهو الفارس الكريم
أن يموت بين اخوانه وخلانه وألا يبقى وحيداً في هذه الصحراء فيقول :

هلي شالوا بليل وما اعلموني وخلوني شبيه المعلموني
تمنيتك بروحي معلموني معاهم لا صميل ولا زهاب

يقول : ان أهله ارتحلوا في الليل دون علمه وتركوه كالجماد المرمي في الأرض أو
المعالم الدالة عليه ويتمنى لو أن نفسه باقية مع أهله وخلانه دون أي شيء آخر يأسف عليه
أو يتمناه من الزاد أو المال .

وهكذا ظلت نفس الأمير جريحة متألّمة تلوم ذويها وتؤسّي نفسها بالأمانى وتعلّل
مصائبها بالآمال حتى طالت مدة النقاهة التي بقي فيها ذلك المرض فاشتد عوده ورأبت
الآمال ذلك الصدع في نفسه وبانت أمام عينيه آمال الحياة وضاحة مشرقة الا أنه ألى ألا
يعود لقومه فاتجه شمالاً لا يكاد يستقر بمكان حتى يلقي عصا ترحاله في آخر الى أن ساقته
الأقذار الى جهات الجزيرة عبر نهر الفرات ورافده نهر البليخ لدى الشيخ (تيمور باش)
أحد رؤساء عشائر الأكراد وجد الشيخ ابراهيم رئيس عشائر (المليّة) الذي كان يقطن
مع عشيرته في تلك البوادي وهذه العشيرة قد أجلاها الأتراك الحاكمون في تلك الأوقات عن
موطنها الأصلي الى هذه الربوع .

كتم امير عبدالله الفاضل شخصيته وأخفى وجهه بغطاء رأسه حتى لا يعرفه أحد وعمل
لدى الشيخ المذكور (يقدم القهوة للقوم) في مرابع الضيافة وهو يحاول أن يبتعد عن أي
انسان آخر وألا يتصل بأحد ، وبقي مدة من الزمن على هذه الحالة وحيداً فريداً معتزلاً
عن الناس ، محاولاً أن ينسى شخصيته وقومه وهياته له ذلك . . !

كان بحكم عمله في نادي القوم يسمع أخبار العشائر ويصل الى سمعه أنباؤها من
الوفود القادمة من الشمال والجنوب ، ومن بوادي الفرات والشام حتى وصله قادم من
بادية حمص وحماء فحدثه عن أخبار قومه ، وما سمعه دون أن يحاول الأمير أن يعرف
محدثه بشخصيته ، الى أن سأله عن عشيرته فأجابه ان عشيرة « الحسنة » بعد غياب الأمير
الفاضل أو بعد موته وهو المعتقد السائد بعد مرضه قد ضعفت منزلتها بين القوم ، ولم يعد
يسمع برجل آخر يماثل الأمير في شجاعته وكرم منزلته ، وكان محدثه لا يعلم أنه يحدث الأمير

نفسه ، وقد حرك هذا الحديث أشجان الأمير الدفينة في نفسه فانطوى عليها وتألم وزفر
زفرة حرى من صميم قلبه وأنشد :

هلي لب الجواهر لو لعنا ويعق لنا عليهم لو لعنا
مريت بحى أهلنا ما عينه الزعيم وبه لقوة للجنا

فيقول ان أهله كفرند السيف اذا تلاً لأبريقه ولمعانه ولهذا حري بنا أن نذكرهم
ونبكي عليهم ، وعندما مرت بحى الأهل والأحبة لم أجد الزعيم القائد الذي يلاقي الأعداء
ويردهم . وكان الأمير يعني نفسه بذلك ويتكلم بلسان محدثه بل قرن بين فخره بقومه
وبين فقدانه وخلو عشيرته منه .

وفي ليلة من الليالي تبارى فيها الشعراء بمربع الشيخ تيمور باش بأبيات العتابا
وأنغامها المنبثقة من وصف الأفراد بالشجاعة أو الكرم أو التي تحت على نهج المروءات
والبطولات واتخاذ المواقف المثلى المعبرة عن النخوة والحمية والشهامة ، والتفاخر بالأهل
والعشيرة والتباهي بمآثر القوم ومناقبهم ، ويظهر أن الأمير قد أزعه مضيفه ببعض
الكلمات النابية مما حرك أشجان نفسه ، وأثار المروءة والنخوة في كيانه ، فرنا ببصره البعيد
الى ماضي قومه وعزته ، وعجب من الظروف وأحداث الزمان التي جعلته أشبه بالخادم بين
ظهراني هؤلاء القوم الذين لا يشبهون قومه في عاداتهم وكرمهم وشجاعتهم واضطجع الأمير
مترنحاً من الهم ، والألم والأسى يعصران نفسه ، ولكنه لم يستطيع أن يتذوق طعم النوم
بعد انصراف الناس من ندوة الشيخ ، فما كان منه الا أن صار يتغنى ألماً وحزناً كالطائر
الذبيح قائلاً هذه الأبيات :

١ - هلي ما لبسوا خادم سمالمهم وبقلوب العدا بايت سمالمهم
الناس النجم واحنا سمالمهم كواكب واسهرن ليل الدجى
٢ - هلي للشاذري طاحون يسحون دواهيك لعظم الضد يسحون
هلي ما قدموا مايدات بصحون خنادقهم تحفرت من عشا
٣ - هلي لو شح قوت الناس عدنا كرام واليتيم يعيش عدنا
بعد ما كنا ذر وللناس عدنا نذرى بالذي ما له ذرا

يقول في البيت الأول : ان قومه لم يلبسوا الخدم ثيابهم وأسمالمهم البالية وهم
سماء تعلقوا غيرها من الأقوام الأخرى التي هي كالنجوم المتجولة بالنسبة للسماء الثابتة .

ويقول في البيت الثاني : ان أهله يختزنون القهوة كأنها القمح الذي تطحنه الطواحين
وهم أبطال يسحقون خصومهم ولا يقدمون الطعام للضيوف بالصحون والأواني .

ويقول في البيت الثالث : ان الناس اذا أصيبوا بالقحط والجذب فقومه يعيدون لهم
ما شحت عليهم الطبيعة به وانه أصبح لاجئاً لدى أناس ليس لهم دالة على غيرهم .

ثلاثة أشياء رمى الأمير بها مضيفه الشيخ تيمور باش وقومه وقد استهجنها وكأنه يعيرهم بها وهي :

- ١ - ان هؤلاء الناس يلبسون الخدم ثيابهم البالية وقومه لا يفعلون ذلك وربما كان قد عُرِض عليه باعتباره يصب القهوة لديهم أن يلبس بعض أسمال أولئك القوم ، بل ربما كانت هي سبب نقمته وإثارة نفسه وهم لا يعرفونه .
- ٢ - وثانيها أنهم يقدمون الطعام للضيوف في صحن وقومه لا يفعلون ذلك بل يقدمونه في مناسف وصواني كبيرة وهي عادة لا يجهلها من يعرف طباع العرب وعاداتهم .
- ٣ - وثالثها وهو عجبه من هذا الزمن الذي رماه بين هؤلاء القوم الذين يراهم أشبه بالنازحين الذين أجلوا عن ديارهم .

انتبه المضيف الشيخ تمورباش بدقة الى ما ترمي اليه هذه الأبيات رغم عدم اجادته للغة العربية الشعبية وفهمه بدقة معانيها ، وقد دله ذكائه على مدلولها ومغزاها ، فثار في وجه الأمير يسأله : من أنت ؟ ومن هم قومك الذين افتخرت بهم هكذا ؟ وما زال يحاوره ويجادله حتى قال له دون أن يفصح له عن شخصيته انه من عشيرة « الحسنه » العربية القاطنة في بادية تدمر وحمص وحماة وان ما قاله عن عاداتهم وكرمهم وشجاعتهم صحيح .

فما كان من الشيخ المضيف الا أن أجابه سنتحقق من صحة ما قلته عن قومك !

ويقول الرواة انه أرسل أربعين رجلاً لتحملهم النوق السريعة وأوصاهم بزيارة عشيرة الحسنه صباح مساء للوقوف على عاداتهم فكان أن تأكد هؤلاء الرسل صحة ما ذكره الأمير عن قومه من الشجاعة والكرم ورأوهم يقدمون الطعام بمناسف ضخمة للضيوف ويتركون زاداً وفيراً للطارقين اذا ارتحلوا وجأؤهم ليلاً يريدون القرى . فكان كرم هؤلاء القوم قد عناهم الشاعر العربي بقوله :

يفشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وعندما عاد الرسل وأخبروا الشيخ بما شاهدوه عن قوم الأمير ، انفرجت أسارير وجهه واغتبط من صحة ما ذكره هذا الشخص الذي يصب القهوة في ناديه وأنه لم يرسل قوله جزافاً ، وأن للشيخ أن يعرف هويته ما دام قد تغنى بالكارم وافتخر بالمآثر وأخيراً عرفه وأنه عميد عشيرة « الحسنه » دون منازع ، فأسف الشيخ لأن مثل هذا الأمير الذي جار عليه الزمان صار عنده على هذه الشاكلة ، فقام وعانقه واعتذر له وأسف لحاله وأغدق عليه الهدايا والنعم من الابل والضأن والخيم والكسوة الفاخرة والمال ويقال انه عرض عليه أن يزوجه إحدى بناته فاعتذر الأمير بلطف متعللاً بسوء صحته ونحول جسمه .

ارتحل الأمير مع قافلته راجعاً الى باديته بعد غياب طويل عنها وعن عشيرته يربو على أربع سنوات وقد تعددت الروايات في كيفية صلحه مع قومه وعودته اليهم بعد أن ظنوا أنه في عداد الأموات ولكن الرواية الشائعة التي رواها الكثيرون أنه خيم بجوار قومه

بصفة شاعر أو زائر متجول وأخذ يتسقط عن كتب أخبار القوم وأخبار أسرته فعلم أن والده قد كف بصره وأن زوجته « ثريا » ما زالت في المنزل وأن عمادة العشيرة قد اغتصبها بعض أقاربه منه وأهان أهله وألحق بهم الذل فما كان منه إلا أن جاء متخفياً إلى الخيمة التي يقيم بها والده فرأى فيها زوجته ووالده كما رأى فيها سيفه وربابته معلقين وفي المساء جاءت غنمه من المرعى فأخذ بعض النعاج وذبحها ودفعها لغيره ليسلخ جلدها ويقدمها قرى - كعادته حينذاك - قبل النكبة، وخامر الشك زوجته بشخصيته ولا سيما وقد أخذ يصنع القهوة ويجعل للمهباج المعدني دقات خاصة مشجبة لا يجيدها غيره ، فاستمالت الدقات الناس الذين اجتمعوا حول الخيمة من كل مكان ، ويقال إن الزوجة استعانت بشاعر حرك شجونه حينما أنشد بعض الأبيات له ولا سيما البيت المذكور في زوجته « ليلي » التي رثاها على فراش الموت وبكى حينذاك وهي قصة الخادم التي رواها للأسرة وكانت هذه أكبر بينة أكدت شخصيته وأبانها بوضوح .

سر الأب والزوجة من ذلك اللقاء - غير المنتظر - ويقال إنه تقلد سيفه واستدل على شخصية من اغتصب الزعامة منه وأهان أسرته فقتله وعندما شاع بين القوم عودة الأمير أعيدت ناقته « البويضة » التي اختفت باختفائه كما أعيدت إليه بعض النعم التي اغتصبت من أسرته وتوافد الناس عليه من كل حدب وصوب مهئين معلنين ولا يهم لزعامته وعودتهم إلى عمادته .

عاد الأمير بعد ذلك إلى صحرائه بنفس متألة تتأمل أحداث الزمان وأرزاءه الأليمة وبقي في بيدائه يشم رائحة الغبار المنبعث من وقع أخفاف الإبل وحوافر الخيل في الصحراء ويرى بجانبه زوجه « ثريا » الوفية التي حافظت على وده وعهده ، فتثور في نفسه نوازع العربي الشجاع بين البادية وغبارها وبجواره المرأة التي لا غنى له عنها ، فيرى في هذا المنظر أريجاً وعنبراً أفضل من غبار المدن في حمص وحماة اللتين يدعوها بالقري الموحمة أي (الفاسدة الهواء) حيث يقول :

هلا بشيري والدنيا مسكبة غسل ياريق (أبو كذلة) مسكبه
عجاج الظعن عنبر والمسك به أخير من القرايا الموحمة

فيرجب بزوجه « ثريا » والسماء ممطرة ويرى أن ريقها كالعسل (وأبو كذلة) كناية عن المرأة في البادية وكأنه الشاعر الفارسي الجاهلي عمرو بن معد يكرب الزبيدي حين نظر إلى زوجه مقبلة بين الظلعين فيقول :

وبدت ليس كأنها بدر السماء إذا تبدى

وبقي الأمير بصحرائه يفاخر بقومه ويعدد صفاتهم التي من أبرزها الشجاعة والكرم فيقول :

هلي عوج المناسف مندل لهم ودرب الكرم سابق من دليهم
كروم الناس تشرب من دلالهم هلي بالكون عين الطلاب

أي أن مناسف الكرم الفخمة تدل على قومه وعادة الكرم ثابتة لهم من أصلهم
ومعدنهم كما أن فرسان القوم تزور نواديهم وتشرب قهوتهم وهم الشجعان في معارك
الحروب .

ويقول أيضاً :

هلي يا هل المحمس والبريق وقهوة غيرهم حنظل بريقي
هلي يا هل الزواعق والبريق سباع الغاب لو صاحوا ضحي

أي : ان أهله أهل القهوة والابريق ولوازمها وهو لا يتذوق طعماً لها عند غيرهم وهم
يشبهون الصواعق والبرق وهم أسود اذا حملوا على العدو في الضحى .

وهكذا عاد الأمير الى عزه وابتسم له الدهر بعد أن عبس وأذاقه المصائب والنكبات
الكبيرة فبقي كالطود في صحرائه يتحدى مصائب الزمان بعد أن صبر على بلوائه ومحنته
ورأى في نفسه أن المصائب قد صهرته وصفت معدنه العربي الأصيل فيقول :

يفاضل ما تشيلك كل عنداي وليث ينطج الطابور عنداي
يلولا المعدنين تصير عنداي هنا هن وأمر بحمر الذرى

أي يخاطب نفسه ويقول انه قوي شديد لا تستطيع أية ناقة أن تحمله وهو أسد
يلاقي كتيبة من الجيش وحده ولو أن الفضة والذهب امتلكهما لكرم بهما وأنفقهما والحق
بهما حمر النعم وكرام النوق وعتاق الخيل .

وهكذا تبدو شخصية الأمير مثالا للرجولة العربية في الصحراء والكرم والصبر على
أرزاء الزمن وقد تغنى بمآثر قومه ولم يحقد عليهم رغم عتبه الشديد على ما صنعوه به
فشعوره شعور الصابر الشجاع الكريم المتألم الذي كان يغالب الزمان والزمان يغلبه
ويصارع الأحداث والأحداث تصرعه . وهكذا كان شأن العربي الأصيل في صحرائه الذي
لا تلين قناته لمصائب الزمن وأحداثه .

أما شعره الشعبي كما هو واضح من أبيات العتابا المذكورة له فيتصف بطابع القوة
والجزالة وشدة العاطفة والصدق ، وقد تغنى بقومه كثيراً وهو أول من استعمل كلمة
/ هلي / في الفخر وقد أخذ عليه البعض اكثاره من التحدث بمآثرهم ومناقبهم وصفاتهم
الا أنهم لم ينكروا عليه الصدق فيما ادعاه ، والواقع أن صفات قومه التي تغنى بها هي
صفاته ، فكأنه كان يرى نفسه في قومه ويحاول أن يظهر رجولته وشجاعته في طابع عشيري
قبلسي أصيل .

وبما أن شعره جزل قوي فقد حاول غيره تقليده ولكنهم لم يفلحوا ويميز نقاد
هذا الأدب الشعبي بين الشعر الأصيل الجزل وبين التقليد المبتذل بكل سهولة وبساطة
ولم يخل شعره من التكرار وإعادة الألفاظ .

وله أبيات أخرى عديدة من العتابا غيرمذكورة في هذه القصة ولكنها في جوهرها ومدلولها لا تخرج عن معاني الأبيات المتقدمة وشعره له أثر بارز في العتابا والأدب الشعبي ويمد الأمير من روادها المشهورين بل هو رب السيف والربابة أو الشعر أو القلم اذا صح التعبير ، وما أشبهه بشعر أبي فراس الحمداني حين يقول :

انا اذا اشد الزمان وناب خطب وادلهم
أفيت حول ييوتنا عدد الشجاعة والكرم
للقا العدا بيض السيوف وللندى حمر النعم
هذا وهذا دأبنا يودى دم ويوراق دم

وتاريخه تاريخ البادية والقفار وشعره شعر البداوة والصحراء والرجولة العربية والصبر على أرزاء الزمان ومصائبه وربما كانت سيرته احياء لما أهمله تاريخ البادية من رجالها وفرسانها المشهورين الذين أعجب بهم الكثيرون وتناقل أخبارهم الرواة وما زالوا يذكرونهم في كل مناسبة ويشيدون بذكرهم وآثارهم .

محمد صالح بريندي

